الموسيقى

الى ماري ايلزابت هاسكل التي اوحت
الى الارواح الصغيرة ان تملأ روحي
انغاماً مع محبتي العميقة ،

جبران خليل جبران

٢١ اذار ١٩٠٨

Musica
1905

نبذة في فنّ

الموسيقى

بقلم

﴿ جبران خليل جبران ﴾

طبعت في مطبعة جريدة المهاجر ☆ نيويورك سنة ١٩٠٥

AL-MOHAJER PRINTING DEPARTMENT

21 WASHINGTON ST. NEW YORK 1905

الموسيقى

جلست بقرب من احبتها نفسي اسمع حديثها · اصغيت ولم انبس ببنت شفة فشعرت ان في صوتها قوة اهتز لها قلبي · اهتزازات كهربائية فصلت ذاتي عن ذاتي فطارت نفسي سابحة في فضاء لا حدَّ لهُ ولا مدى ترى الكون حلماً والجسد سجناً ضيقاً ·

سحر عجيب مازج صوت حبيبتي وفعل بشواعري ما فعل وانا لاهٍ عن كلامها بما اغناني عن الكلام ·

هي الموسيقى ايها الناس سمعتها اذ تنهدت حبيبتي بُعيد بعض الكلمات وابتسمت في بعضها · سمعتها لما حكت تارةً بالفاظ متقطعة واونة بجمل متواصلة

واخرى بكلمات ابقت نصفها بين شفتيها ·

تأثيرات قلب حبيبتي رأيتها بعين سمعي فاشغلتني عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هي صوت النفس ·

بلى فالموسيقى هي لغة النفوس والالحان نسيمات لطيفة تهز اوتار العواطف · هي انامل رقيقة تطرق باب الشواعر وتنبه الذاكرة فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث اثرت فيها بماضٍ عبر ·

هي نغمات رقيقة تستحضر على صفحات المخيلة ذكرى ساعات الاسى والحزن اذا ما كانت محزنة او ذكرى اويقات الصفا والافراح اذا كانت مفرحة ·

هي مجموع اصوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتملأ اضلعك لوعة وتمثل لك الشقاء كالاشباح ·

هي تأليف انغام مفرحة تعيها فتأخذ بمجامع قلبك فيرقص بين اضلعك فرحاً وتيهاً

هي رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموجات الاثير فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة اشارتها لوعة نائي حبيب او الام كلوم خرقها ناب الدهر · وربما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء ·

هي جسم من الحشاشة له روح من النفس وعقل من القلب ·

....

وجد الانسان فاوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغة وليست كاللغات تحكي ما يكنه القلب للقلب فهي حديث القلوب · وهي كالحب عمّ تاثيرها الناس فترنم بها البرابرة في الصحراء وهزت اعطاف الملوك في الصروح · مزجتها الثكلى مع نوحها فكانت ندباً يفتت قلب الجماد · وبثها الجذلان مع افراحه فكانت انشاداً يطرب مغلوب الارزاء فقد حاكت الشمس

اذا حيت باشعتها جميع زهور الحقل ·

الموسيقى كالمصباح تطرد ظلمة النفس وتنير القلب فتظهر اعماقه· والالحان فى قضائي اشباح الذات الحقيقية او خيالات الشعائر الحية · والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الاشباح وصور تلك الخيالات ·

النفس زهرة لينة في مهب ريح التقادير نسيمات الصباح تهزها وقطرات الندى تلوي عنقها · كذا تغريدة عصفور تنبه الانسان من غفلته فيصغي ويشعر ويجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته فيسأل ذاته وما يحف بهِ عما اسرّه لحن ذلك الطائر الحقير فحرك اوتار عواطفه واوحى اليه معاني ما حوتها كتب الأُلى تقدموه · يسأل مستفهماً عما اذا كان العصفور يناجي زهور الحقل ام يحاكي اغصان الاشجار ام يتقلد

خرير مجاري المياه ام ينادم الطبيعة باسرها ولكنه لا يستطيع الى الحصول على الجواب سبيلاً ٠

الانسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق اطراف الاغصان ولا الجدول على الحصباء ولا الامواج اذ تأتي الشاطئ ببطء وهدو ٠ ولا يفقه مـا يحكيه المطر اذ يتساقط منهملاً على اوراق الاشجار او عندما يطرق بانامله اللطيفة بلور نافذتهِ ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ولكنه يشعر ان قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الاصوات فيهتز لها تارة بعوامل الطرب ويتنهد طوراً بفواعل الأسى والكآبة ٠ اصوات تناجيه بلغة خفية وضعتها الحكمة قبل كيانـه فتحدثت نفسه والطبيعة مراتٍ كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائراً وربما ناب عن لفظهِ الدمع والدمع افصح مترجم ٠

. . . .

تـ ِ معي ياصاح الى مسرح الذكرى لنرى منزلـة

الموسيقى عند امم طوتهم الايام وتعال نتأمل تاثيرها في كل دور من ادوار ابن آدم ·

عبدها الكلدانيون والمصريون كاله عظيم يسجد له ويمجد · واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر · وقال شاعر فارس ما معناه « ان الموسيقى كانت حوريـة في سماء الالهة تعشقت آدمياً وهبطت نحوه من العلو فغضب الالهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحاً شديدة نثرتها في الجو وبعثرتها في زوايا الدنيا · ولم تمت نفسها قط بل هي حية تقطن اذان البشر »

وقال حكيم هندي « ان عذوبة الالحان توطد آمالي بوجود ابدية جميلة »

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت الهاً مقتدراً بنوا له هياكل عظيمة ما برحت تحدثنا بعظمتهم ومذابح فخيمة قدموا عليها اجمل قرابينهم واعطر بخورهم · الهاً دعوه ابولون فمثلوه وجميع الكمالات تجمله منتصباً

كالغصن على مجاري المياه يحمل القيثارة في يسراه ويمينه على الاوتار. راسه مرفوع يمثل العظمة وعيناه ناظرتان الى البعيد كأَنهُ يرى اعماق الاشياء ·

وقالوا ان رنات اوتار ابولون صدى صوت الطبيعة رنات شجية ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهدات النسيم وحفيف اغصان الاشجار ·

وجاء في اساطيرهم ان رنات اوتار اورفيوس الموسيقي حركت قلب الحيوان فاتبعتهُ الضواري · والنبات فمدت نحوه الازاهر اعناقها ومالت اليه الاغصان · والجماد فتحرك وتفتت ·

وقالوا فقد اورفيوس زوجته فبكاها ورثاها نادباً حتى ملأَت نغمة لوعته البرية فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنت قلوب الالهة ففتحت لهُ ابواب الابديـة كي يلتقي بحبيبته في عالم الارواح ·

وقالوا قتلت بنات الاحراج أورفيوس ورمين براسه

وقيثارته الى البحر فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الاغاني ·

وقالوا ان الامواج التي حملت رأس اورفيوس وقيثارتهُ ما برحت مذ ذاك الحين تصيغ من اصواتها ندباً موءثراً وانغاماً محزنة تملاء الاثير فيسمعها الملاحون·

هذا كلام بعد ان قضى عز تلك الامة ومضى دعوناه خرافات مصدرها الوهم واحلاماً ابتدعتها التصورات غير انهُ قول دل على ان تاثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقاً وعظيماً فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد فما ضرنا لو دعونا تلك الاقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال وهذا في عرف الشعراء الشعر ·

نقلت الينا آثار الاشوريين رسوماً تمثل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها وحدثنا موءرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها عنوان المجد في الحفلات و رمز السعادة

في الاعياد · اجل فالسعادة بدونها تحكي فتاة قطع لسانها فالموسيقي لسان جميع امم الارض سبحت معبوداتها بالاناشيد ومجدتهم بالالحان وكانت التراتيل وهي الان فرض كالصلاة يقدمونها في المعابد وكمحرقات يقفونها على القوت المعبودة · محرقات مقدسة مبدأها عوطف النفس · صلوات يهذبها القلب وما اكملتهُ اهتزازات الشعائر · انفاس حرة ما زلفتها الانفاظ بل تظرفت بها انفاس اثارتها ندامة الملك داود فملأت اناشيده ارض فلسطين وابتدعت اشجانهُ انغاماً شجية موثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس · وكوسيط قامت مزاميره بينهُ وبين الله تطلب لهُ مغفرة زلاته · وكأن رنات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق وسرت مع قطرات دمه الى اصابعه فكانت اعمال تلك الاصابع عظيمة عند الله والناس · وهو القائل « هللوا للرب سبحوا الرب بصوت البوق سبحوه بالمزامير والقيثارة سبحوه بالطبل

والدفوف سبحوه بالاوتار والارغن سبحوه بصوت الصنوج سبحوه بصنوج التهليل وكل نسمة فلتسبح الرب » وجاء في الاسفار ان ملائكة من السماء تأتي في آخر الدهر نافخة الابواب في جميع اقطار العالم فتستفيق من صوتها الارواح وتلبس اجسامها وتنشر امام الديان · لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى اذ انزلها منزلة رسول من الله الى ارواح البشر وما قول الكاتب الا صورة شواعره وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه ·

وجاء في بدء مأساة ابن البشر ان التلامذة سبحوا قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم · وكاني الان اسمع نغم تلك التسبحة صادرًا من اعماق نفوس حزينة رأت ما سيحل برسول السلام فتنفست عن نغمة موثرة نابت عن كلمة الوداع ·

. . . .

تسير الموسيقى امـام العساكر الى الحرب فتجدد عزيمة حميتهم ونفوسهم على الكفاح وكالجاذبية تجمع شتاتهم وتوءلف منهم صفوفاً لا تتفرق . ما سارت الشعراء امام الكتائب الى ساحات القتال موطن المنية لا ولا الخطباء . ما رافقتهم الاقلام والكتب بل مشت امامهم الموسيقى كقائد عظيم يبثُّ باجسامهم الواهنة قوة تفوق الوصف. وحمية تنبه في قلوبهم حب الانتصار فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ويدافعون بكلما في اجسادهم من القوة ووراءها يسيرون بفرح وطرب ويتبعون الموت الى ارض العدو المبغوضة . كذا يستخدم ابن آدم اقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون .

الموسيقى رفيقة الراعي في وحدتهِ وهو ان جاس على صخرة في وسط قطيعهِ نفخ بشبابته الحاناً تعرفها نعاجه فترعى الاعشاب آمنة . والشبابة عند الراعي كصديق

عزيز لا تفارق وسطهُ ونديم محبوب تستبدل سكينة الوديان الرهيبة برياض ماهولة وتقتل بانغامها الشجية وحشتها وتملاء الهواء انساً وحلاوة ·

الموسيقي تقود اظعان المسافرين وتخفف تاثير التعب وتقصر مديد الطرقات · فالعيس لا تسير في البيداء الا اذا سمعت صوت الحادي والقافلة لا تقيم بثقيل الاحمال الاَّ اذا كانت الاجراس معلقةً برقابها ولا بدع فالعقلاء في ايامنا هذه يربون الضواري بالالحان ويدجنونها باصوات عذبة ·

. . . .

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاذ معنا مراحل الحياة تشاطرنا الارزاء والافراح وتساهمنا السراء والضراء · وتقوم كالشاهد في ايام مسرتنا وكقريب شفوق في ايام شقائنا ·

يأتي المولود من عالم الغيب الى دنيانا فتقابله

القابلـة والاقارب باغاني الفرح متاهلين باناشيـد الابتهاج والحبور . يحييهم عندما يرى النور بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهليل والهتاف كانهم يسابقون بالموسيقي الزمان على افهامه الحكمة الالهية .

واذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدتـه وغنت بصوتها الموسيقي المملوء رقةً وحنوًا فيكف عن البكاء ويرتاح لالحان امه المتجسمة من الشفقة وينام . وفي الحـان الوالدة ونغمتها قوة توعز الى الكرى ليغمض اجفان طفلها . وتشارك تلك الالحان السكينة بهدوها فتزيدها حلاوة وتمحو رهبتها وتملاءها سحرًا من انفاس الامّ الحنونة حتى يتغلب الرضيع على الارق وينـام وتطير نفسه الى عالم الارواح . ولا ينـام الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون او قرأت من الفارض .

ينتقي الرجل شريكة حياته وتتحد نفساهما برباط الزواج متممين وصيـة كتبتها الحكمة منذ البدء على

قلبيهما فيجتمع الاقارب والخلان ويفرحون بالاناشيد والاهازيج ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرس المحبة · فكاني بها يوم التعريس صوت رهيب تمازجه الحلاوة · صوت يمجد الله في مخلوقاته · صوت ينبه الحياة النائمة لتسير وتنتشر وتملاء وجه الارض ·

وعندما ياتي الموت ويمثل آخر مشهد من رواية الحياة نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملاء الجو باشباح الاسى في تلك الساعة الموجعة اذ تودع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح في بحر الابدية تاركة هيكلها الهيولي بين ايدي المحنين والندابين فيتاوهون بنغمات الحزن والاسف ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيعونها بالحان مفادها الضيم واناشيد معناها الكمد واللوعة · نغمات يحبونها ما بقي التراب فوق التراب وندبلت يبقى صداها في خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر من مضى·

. . . .

هي رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموجات الاثير فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة اشارتها لوعة نأي حبيب او الام كلوم خرقها ناب الدهر · وربما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء ·

هي جسم من الحشاشة له روح من النفس وعقل من القلب ·

. . . .

وجد الانسان فاوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغة وليست كاللغات تحكي ما يكنه القلب للقلب فهي حديث القلوب · وهي كالحب عمّ تاثيرها الناس فترنم بها البرابرة في الصحراء وهزت اعطاف الملوك في الصروح · مزجتها الثكلى مع نوحها فكانت ندباً يفتت قلب الجماد · وبثها الجذلان مع افراحه فكانت انشاداً يطرب مغلوب الارزاء فقد حاكت الشمس

اذا حيت باشعتها جميع زهور الحقل ٠

الموسيقى كالمصباح تطرد ظلمة النفس وتنير القلب فتظهر اعماقه٠ والالحان فى قضائي اشباح الذات الحقيقية او خيالات الشعائر الحية ٠ والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الاشباح وصور تلك الخيالات ٠

النفس زهرة لينة في مهب ريح التقادير نسيمات الصباح تهزها وقطرات الندى تلوي عنقها ٠ كذا تغريدة عصفور تنبه الانسان من غفلته فيصغي ويشعر ويجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته فيسأل ذاته وما يحف بِهِ عما اسرّه لحن ذلك الطائر الحقير فحرك اوتار عواطفه واوحى اليه معاني مـا حوتها كتب الالى تقدموه ٠ يسأل مستفهماً عما اذا كان العصفور يناجي زهور الحقل ام يحاكي اغصان الاشجار ام يقلد

خرير مجاري المياه ام ينادم الطبيعة باسرها ولكنه لا يستطيع الى الحصول على الجواب سبيلاً ·

الانسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق اطراف الاغصان ولا الجدول على الحصباء ولا الامواج اذ تأتي الشاطئ ببطء وهدو · ولا يفقه ما يحكيه المطر اذ يتساقط منهملاً على اوراق الاشجار او عندما يطرق بانامله اللطيفة بلور نافذتهِ ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ولكنه يشعر ان قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الاصوات فيهتز لها تارة بعوامل الطرب ويتنهد طوراً بفواعل الاسى والكآبة · اصوات تناجيه بلغة خفية وضعتها الحكمة قبل كيانه فتحدثت نفسه والطبيعة مراتٍ كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائراً وربما ناب عن لفظهِ الدمع والدمع افصح مترجم ·

. . . .

تعالي معي ياصاح الى مسرح الذكرى لنرى منزلة

الموسيقى عند امم طوتهم الايام وتعال نتأمل تاثيرها في كل دور من ادوار ابن آدم .

عبدها الكلدانيون والمصريون كاله عظيم يسجد له ويمجد . واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر . وقال شاعر فارس ما معناه «ان الموسيقى كانت حورية في سماء الالهة تعشقت آدمياً وهبطت نحوه من العلو فغضب الالهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحاً شديدة نثرتها في الجو وبعثرتها في زوايا الدنيا . ولم تمت نفسها قط بل هي حية تقطن اذان البشر»

وقال حكيم هندي «ان عذوبة الالحان توطد آمالي بوجود ابدية جميلة»

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت الهاً مقتدراً بنوا لهُ هياكل عظيمة ما برحت تحدثنا بعظمتهم ومذابح فخيمة قدموا عليها اجمل قرابينهم واعطر بخورهم . الهاً دعوه ابولون فمثلوه وجميع الكمالات تجمله منتصباً

كالغصن على مجاري المياه يحمل القيثارة في يسراه ويمينه على الاوتار· راسه مرفوع يمثل العظمة وعيناه ناظرتان الى البعيد كأنهُ يرى اعماق الاشياء ·

وقالوا ان رنات اوتار ابولون صدى صوت الطبيعة رنات شجية ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهدات النسيم وحفيف اغصان الاشجار ·

وجاء في اساطيرهم ان رنات اوتار اورفيوس الموسيقي حركت قلب الحيوان فاتبعتهُ الضواري · والنبات فمدت نحوه الازاهر اعناقها ومالت اليه الاغصان · والجماد فتحرك وتفتت ·

وقالوا فقد اورفيوس زوجته فبكاها ورثاها نادباً حتى ملأت نغمة لوعته البرية فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنت قلوب الالهة ففتحت لهُ ابواب الابديـة كي يلتقي بحبيبته في عالم الارواح ·

وقالوا قتلت بنات الاحراج اورفيوس ورمين براسه

وقيثارته الى البحر فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الاغاني .

وقالوا ان الامواج التي حملت رأس اورفيوس وقيثارتهُ ما برحت مذ ذاك الحين تصيغ من اصواتها ندباً موءثراً وانغاماً محزنة تملاء الاثير فيسمعها الملاحون .

هذا كلام بعد ان قضى عز تلك الامة ومضى دعوناه خرافات مصدرها الوهم واحلاماً ابتدعتها التصورات غير انهُ قول دل على ان تاثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقاً وعظيماً فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد فما ضرنا لو دعونا تلك الاقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال وهذا في عرف الشعراء الشعر .

نقلت الينا آثار الاشوريين رسوماً تمثل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها وحدّثنا موءرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها عنوان المجد في الحفلات ورمز السعادة

في الاعياد · اجل فالسعادة بدونها تحكي فتاة قطع لسانها فالموسيقى لسان جميع امم الارض سبّحت معبوداتها بالاناشيد ومجدتهم بالالحان وكانت التراتيل وهي الان فرض كالصلاة يقدمونها في المعابد وكمحرقات يقفونها على القوت المعبودة · محرقات مقدسة مبدأُها عوطف النفس · صلوات يهذ بها القلب وما اكملتهُ اهتزازات الشعائر · انفاس حرة ما زلفتها الالفاظ بل تظرفت بها انفاس اثارتها ندامة الملك داود فملأَت اناشيده ارض فلسطين وابتدعت اشجانهُ انغامـاً شجية موثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس · وكوسيط قامت مزاميره بينهُ وبين الله تطلب لهُ مغفرة زلاته · وكأن رنات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق وسرت مع قطرات دمه الى اصابعه فكانت اعمال تلك الاصـابع عظيمة عنـد الله والناس · وهو القائل « هللوا للرب سبّحوا الرب بصوت البوق سبحوه بالمزامير والقيثارة سبحوه بالطبل

والدفوف سبحوهُ بالاوتار والارغن سبحوهُ بصوت الصنوج سبحوهُ بصنوج التهليـل وكل نسمة فلتسبح الرب » وجاء في الاسفار ان ملائكة من السماء تأتي في آخر الدهر نافخة الابواب في جميع اقطار العالم فتستفيق من صوتها الارواح وتلبس اجسامها وتنشر امام الديان . لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى اذ انزلها منزلة رسول من الله الى ارواح البشر وما قول الكـاتب الا صورة شواعرهِ وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريهِ .

وجاء في بدء مأساة ابن البشر ان التلامذة سبحوا قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم . وكاني الان اسمع نغم تلك التسبحة صادرًا من اعماق نفوس حزينة رأَت ما سيحل برسول السلام فتنفست عن نغمة موءثرة نابت عن كلمة الوداع .

. . . .

تسير الموسيقى امــام العساكر الى الحرب فتجدد عزيمة حميتهم وتقويهم على الكفاح وكالجاذبية تجمع شتاتهم وتؤلف منهم صفوفــاً لا تتفرق · ما سارت الشعراء امام الكتائب الى ساحات القتال موطن المنية لا ولا الخطباء · ما رافقتهم الاقلام والكتب بل مشت امامهم الموسيقى كقائد عظيم يبثُّ باجسامهم الواهنة قوة تفوق الوصف وحمية تنبه في قلوبهم حب الانتصار فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ويدافعون بكلما في اجسادهم من القوة ووراءها يسيرون بفرح وطرب ويتبعون الموت الى ارض العدو المبغوضة · كذا يستخدم ابن آدم اقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون ·

الموسيقى رفيقة الراعي في وحدتهِ وهو ان جلس على صخرة في وسط قطيعهِ نفخ بشبابته الحاناً تعرفها نعاجه فترعى الاعشاب آمنة · والشبابة عند الراعي كصديق

عزيز لا تفارق وسطهُ ونديم محبوب تستبدل سكينة الوديان الرهيبة برياض ماهولة وتقتل بانغامها الشجية وحشتها وتملاء الهواء انساً وحلاوة ·

الموسيقي تقود اظعان المسافرين وتخفف تاثير التعب وتقصر مديد الطرقات · فالعيس لا تسير في البيداء الا اذا سمعت صوت الحادي والقافلة لا تقيم بثقيل الاحمال الاَّ اذا كانت الاجراس معلقةً برقابها ولا بدع فالعقلاء في ايامنا هذه يربون الضواري بالالحان ويدجنونها باصوات عذبة ·

. . . .

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاذ معنا مراحل الحياة تشاطرنا الارزاء والافراح وتساهمنا السراء والضراء · وتقوم كالشاهد في ايام مسرتنا وكقريب شفوق في ايام شقائنا ·

يأتي المولود من عالم الغيب الى دنيانا فتقابله

القابلــة والاقارب باغاني الفرح متاهلين باناشيــد الابتهاج والحبور · يحييهم عندما يرى النور بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهليل والهتاف كانهم يسابقون بالموسيقي الزمان على افهامه الحكمة الالهية ·

واذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدتــه وغنت بصوتها الموسيقي المملوء رقةً وحنوًا فيكف عن البكاء ويرتاح لالحان امه المتجسمة من الشفقة وينام · وفي الحــان الوالدة ونغمتها قوة توعز الى الكرى ليغمض اجفان طفلها · وتشارك تلك الالحان السكينة بهدوها فتزيدها حلاوة وتمحو رهبتها وتملاءها سحرًا من انفاس الامّ الحنونة حتى يتغلب الرضيع على الارق وينــام وتطير نفسه الى عالم الارواح · ولا ينــام الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون او قرأت من الفارض ·

ينتقي الرجل شريكة حياته وتتحد نفساهما برباط الزواج متممين وصيــة كتبتها الحكمة منذ البدء على

قلبيهما فيجتمع الاقارب والخلان ويفرحون بالاناشيد والاهازيج ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرس المحبة . فكاني بها يوم التعريس صوت رهيب تمازجه الحلاوة . صوت يمجد الله في مخلوقاته . صوت ينبه الحياة النائمة لتسير وتنتشر وتملاء وجه الارض .

وعندما ياتي الموت ويمثل آخر مشهد من رواية الحياة نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملاء الجو باشباح الاسى في تلك الساعة الموجعة اذ تودع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح في بحر الابدية تاركة هيكلها الهيولي بين ايدي المحنين والنادبين فيتاوهون بنغمات الحزن والاسف ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيعونها بالحان مفادها الضيم واناشيد معناها الكمد واللوعة . نغمات يحبونها ما بقي التراب فوق التراب وندبات يبقى صداها في خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر من مضى .

. . . .

جانست من ميزة الله بعذوبة الصوت، وحباه ادراك فلسفة التنغيم والايقاع فرأيت السامعين حوله مصغين صاغرين ماسكين انفاسهم محكومين بفواعل السكينة شاخصين اليه وكالشعراء المستسلمين لقوة فعالة توحي اليهم اسراراً غريبة حتى اذا ما انتهى الملحن من انشاده تنهدوا جميعاً ذاك التنهد الطويل — اه — اه صادرة من افئدة هيجت فيها الالحان عواطف مكنونة فلذ لها التأوه . اه تتنفسها قلوب حرى انعشتها الذكرى . اه كلمة صغيرة لكنها حديث طويل . اه ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه بل تنهدها من اعاراذناً لنشيد نسج من مقاطع انفاس متقطعة . انفاس حية مثلت له فصلاً من رواية حياته الماضية او فشت سراً اكنته اضلعه .

وكم تأملت وجه سامع حساس فرايت ملامحه تنقبض تارة وتنبسط طوراً وتنقلب مع تقلبات النغم .

واهتديت بخلقه على حالقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره .

والموسيقى كالشعر والتصوير تمثل حالات الانسان المختلفة وترسم اشباح اطوار القلب وتوضح خيالات اميال النفس وتصيغ مـا يجول في الخاطر وتصف اجمل مشتهيات الجسد .

فالنهاوند يمثـل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة من راحل عزيز . يمثل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق . النهاوند صوت من اعماق النفس الحزينة . نغم متجسم من مهجور يسأل عطفاً على رمقه قبل ان يضنيه البعاد . زفرات يائس انشأتها المرارة وتنهدات قانط بثتها لوعة من اتلفه الصبر والتجلد . النهاوند يمثل الخريف وتساقط اوراق الاشجار المصفرة بسكينة وهدو وتلاعب الريح بها وتفريق شملها . النهاونـد صلاة والدة نأى

ابنها الى ارض بعيدة فباتت بعده تغالب النوى فيها جمها بعوامل اليأس وتصده بفواعل الصبر والأمل ·
وفي النهاوند معنىً بـل معان واسرار يفهمها القلب وتفقهها النفس · اسرار يحاول بثها اللسان وكشفها القلم فيجف هذا وتتقطع اوصال ذاك ·

واصغيت للاصفهان فشاهدت بعين سمعي آخر فصل من حكاية عاشق دنف مات حبيبه فتقطعت عرى اماله وتواصلت زفراته فهو ينوح باخر ما في جسده من الحياة ويرثي ببقايا ما في حياته من الرمق · الاصفهان اخر نفس من منازع واقف في مركب الموت بين شاطئ الحياة وبحر الابديـة · الاصفهان رثاء الذات بغصات متقطعة متواصلة وتنهدات عميقة · نغمة صداها سكينـة تمازجها مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء ·

وان كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل

فالاصفهان انين من انفصمت عرى آماله ·

نسمع الصبا فتستفيق منا قلوب حجبتها لحف الغم وتستيقظ وترقص بين الضلوع · فالصبا نغمة فرح تنسي المرء اتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذة غريبة ويستزيد منها كانهُ يعلم ان خمرة المسرة تسابقها فتحكم بالعاقلة · الصبا حديث محب مغبوط صارع الدهر ورغم انف البين واسعدته الليالي بخلوة فحظي بلقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد فاولاه اللقاء فرحاً وابتهاجاً · الصبا كنسيمات الصبا تمر فتهتز لها ازاهر الحقل تيهاً وابتهاجاً ·

والمرصد في سكينة الليل وقع في الشعائر يحاكي تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غال انقطعت اخباره في بلاد بعيدة فجاء الكتاب يحيي عاطفة الامل ويعد النفس باللقاء · وكاني بمغني الرصد يخبر بقرب الفجر واندحار الظلام وقد قيل « ان جهز ليلك

فارصد »

وفي العتابا البعلبكية عتـاب رقيق يتراوح بين اللوم والتعنيف ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر والصبا المفرح وفعلها في النفس فعلهما .

. . . .

والان قد كتبت هذه الصفحات واراني كطفل ينسخ كلمة من نشيد طويل غنته الملائكة عندما جبل الله الانسان الاول او كأمي يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة على صفحات الشعائر قبيل ابتداء الدهر.

فيا ايتها الموسيقى . ياأو تربي المقدسة (١) لقد رقصت اخواتك الفنون فيما غبر من الاجيال زمناً ووضعن في معاقل النسيان آخر وانت تهزأين بهن ولم تتنازلي عن مرسح النفس يوماً واحداً فكانك صدى القبلة الاولى التي وضعها ادم على شفتي حواء . صدى

---

(١) او تربي الهة الموسيقي عند قدماء اليونان

لهُ صدى لهُ صدى تتناقل وتتناسخ وتكتلف الكل وتحيا بالكل يلذ اعمالها عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعهِ ·

يا ابنة النفس والمحبة · يا اناء مرارة الغرام وحلاوته · يا خيالات القلب البشري · ياثمرة الحزن وزهرة الفرح · يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور الشعائر المضمومة · يالسان المحبين ومذيعة اسرار العاشقين · ياصائغة الدموع من العواطف المكنونة · ياموحية الشعراء ومنظمة عقود الاوزان · ياموحدة الافكار مع نتف الكلام ومؤلفة الشواعر من مؤثرات الجمال · ياخمرة القلوب الرافعة شاربها الى اعالي عالم الخيالات · يامشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين · يا ايتها التموجات الاثيرية الحاملة اشباح النفس ويا بحر الرقة واللطف الى امواجك نسلم انفسنا وفي اعماقك نستودع قلوبنا فاحمليها الى ما وراء

جالست من ميزّه الله بعذوبة الصوت، وحباه ادراك فلسفة التنغيم والايقاع فرأيت السامعين حوله مصغين صاغرين ماسكين انفاسهم محكومين بفواعل السكينة شاخصين اليه وكالشعراء المستسلمين لقوة فعالة توحي اليهم اسراراً غريبة حتى اذا ما انتهى الملحن من انشاده تنهدوا جميعاً ذاك التنهد الطويل ــ اه ــ اه صادرة من افئدة هيجت فيها الالحان عواطف مكنونة فلذ لها التأوه . اه تتنفسها قلوب حرى انعشتها الذكرى . اه كلمة صغيرة لكنها حديث طويل .
آه ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه بل تنهدها من اعاراذناً النشيد نسج من مقاطع انفاس متقطعة . انفاس حية مثلت له فصلاً من رواية حياته الماضية او فشت سرّاً اكنته اضلعه .

وكم تأملت وجه سامع حساس فرايت ملامحه تنقبض تارة وتنبسط طوراً وتنقلب مع تقلبات النغم .

واهتديت بخلقه على حلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره.

والموسيقى كالشعر والتصوير تمثل حالات الانسان المختلفة وترسم اشباح اطوار القلب وتوضح خيالات اميال النفس وتصيغ ما يجول في الخاطر وتصف اجمل مشتهيات الجسد ·

فالنهاوند يمثل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة من راحل عزيز · يمثل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق · النهاوند صوت من اعماق النفس الحزينة · نغم متجسم من مهجور يسأل عطفاً على رمقه قبل ان يضنيه البعاد · زفرات يائس انشأتها المرارة وتنهدات قانط بثتها لوعة من اتلفه الصبر والتجلد · النهاوند يمثل الخريف وتساقط اوراق الاشجار المصفرة بسكينة وهدو وتلاعب الريح بها وتفريق شملها · النهاوند صلاة والدة نأى

ابنها الى ارض بعيدة فباتت بعده تغالب النوى فيها
جمها بعوامل اليأس وتصده بفواعل الصبر والأمل ·
وفي النهاوند معنىً بل معان واسرار يفهمها القلب
وتفقهها النفس · اسرار يحاول بثها اللسان وكشفها القلم
فيجف هذا وتنقطع اوصال ذاك ·

واصغيت للاصفهان فشاهدت بعين سمعي آخر فصل
من حكاية عاشق دنف مات حبيبه فتقطعت عرى
اماله وتواصلت زفراته فهو ينوح باخر ما في جسده
من الحياة و يرثي ببقايا ما في حياته من الرمق · الاصفهان
اخر نفس من منازع واقف في مركب الموت بين
شاطئ الحياة وبحر الابدية · الاصفهان رثاء الذات
بغصات متقطعة متواصلة وتنهدات عميقة · نغمة صداها
سكينة تمازجها مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع
والوفاء ·

وان كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل

فالاصفهان اين من انفصمت عرى آماله ·

نسمع الصبا فتستفيق منا قلوب حجبتها سجف الغم وتستيقظ وترقص بين الضلوع · فالصبا نغمة فرح تنسي المرء اتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذة غريبة ويستزيد منها كانهُ يعلم ان خمرة المسرة تسابقها فتحكم بالعاقلة · الصبا حديث محب مغبوط صارع الدهر ورغم انف البين واسعدته الليالي بخلوة فحظي بلقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد فاولاه اللقاء فرحاً وابتهاجاً · الصبا كنسيمات الصبا تمر فتهتزها ازاهر الحقل تيهاً وابتهاجاً ·

والمرصد في سكينة الليل وقع في الشعائر يحاكي تاثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غال انقطعت اخباره في بلاد بعيدة فجاء الكتاب يحيي عاطفة الامل ويعد النفس باللقاء · وكاني بمغني المرصد يخبر بقرب الفجر واندحار الظلام وقد قيل « ان جهز ليلك

فارصد »

وفي العتابا البعلبكية عتـاب رقيق يتراوح بين اللوم والتعنيف ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر والصبا المقرح وفعلها في النفس فعلهما ·

. . . .

والان قد كتبت هذه الصفحات واراني كطفل ينسخ كلمة من نشيد طويل غنته الملائكة عندما جبل الله الانسان الاول او كأمي يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة على صفحات الشعائر قبيل ابتداء الدهر·

فيا ايتها الموسيقى · يا أوتربي المقدسة (١) لقد رقصت اخواتك الفنون فيما غبر من الاجيال زمناً ووضعن في معاقل النسيان آخر وانت تهزأين بهن ولم تتنازلي عن مرسح النفس يوماً واحداً فكانك صدى القبلة الاولى التي وضعها ادم على شفتي حواء · صدى

(١) او تربي الهة الموسيقي عند قدماء اليونان

مة صدى له صدى تتناقل وتتناسخ وتكتلف الكل وتحيا بالكل يلذ لعمالها عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعهِ ٠

يا ابنة النفس والمحبة ٠ يا اناء مرارة الغرام وحلاوته ٠ يا خيالات القلب البشري ٠ ياثمرة الحزن وزهرة الفرح ٠ يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور الشعائر المضمومة ٠ يالسان المحبين ومذيعة اسرار العاشقين ٠ ياصائغة الدموع من العواطف المكنونة ٠ ياموحية الشعراء ومنظمة عقود الاوزان ٠ ياموحدة الافكار مع نتف الكلام ومؤلفة الشواعر من مؤثرات الجمال ٠ ياخمرة القلوب الرافعة شاربها الى اعالي عالم الخيالات ٠ يامشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين ٠ يا ايتها التموجات الاثيرية الحاملة اشباح النفس ويا بحر الرقة واللطف الى امواجكِ نسلم انفسنا وفي اعماقكِ نستودع قلوبنا فاحمليها الى ما وراء

المادة وارينا ما تكنه عوالم الغيب ·

تكاثري ياعواطف النفوس وتعاظمي ياشواعر القلوب وارفعي ايادي ذوي الايادي لبناء الهياكل لهذه الالهة العظيمة · وانزل ياملاك الوحي على قلوب الشعراء واسكب في خلايا قريحتهم مديحاً وتسبيحاً لهذه العظيمة المقدسة· واكبري يامخيلة الرسامين والنقاشين وابتدعي لها صوراً واشباحاً ·

كرموا ياسكان الارض كهنتها وكاهناتها وعيدوا لذكر خدامها وشيدوا لهم التماثيل · صلي ايتها الامم وسلمي على اورفيوس وداود والموصلي وعظمي ذكر بيتوفن وفغنر وموزارت · وغني ياسوريا اسم شاكر الحلبي ويا مصر عبده الحمولي · كبرايها الكون الألى بثوا في سمائك انفسهم وملاوا الهواء ارواحاً لطيفة وعلموا الانسان ان يرى بسمعه ويسمع بقلبه · امين